حليمة أبو هنية (*)

الاستشراق بمفهومه الإسرائيلي

[حول كتاب «نزع السحر عن الشرق» لغيل إيال. ترجمة: حسن خضر. إصدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار، ٢٠٠٩]

كتاب غيل إيال عبارة عن محاولة لدراسة نظرة الإسرائيليين للعرب والشرق وكيفيّة تعاملهم مع الحقائق حولهم. ومن ناحية أخرى فإسرائيل متأثّرة بالغرب ثقافيّا وفكريّا، وفي الوقت نفسه هي مغروسة في الشرق جغرافيّا، وهذا بحدّ ذاته ربّما يعبّر عن التناقض الذي قد يعيشه المستشرق الإسرائيلي، ويخلق الصعوبة في محاولات تطهير ما يسمّونهم بالمهجّنين. وبهذا يتعرّض الكاتب إلى واحد من العناصر الجوهريّة في الثقافة الإسرائيلية، حيث يعتبر الاستشراق موضوعا ثقافيّا وسياسيّا زخما.

يبدأ إيال الكتاب بمعالجة معنى الاستشراق (مِزراحَنوت) بالمفهوم الإسرائيلي للمصطلح، والذي يشير إلى ما هو أبعد من مجرّد الدراسة الأكاديميّة للشرق الأوسط والإسلام أو اللغة والأدب العربيين، ليشمل كلّ موظّفي الحكومة وضبّاط الجيش والصحافيّين، والخبراء الآخرين ممن يتابعون الأوضاع في البلدان العربيّة، أو ممن يشاركون في نقاشات رسميّة وإعلاميّة حول الشؤون العربيّة والإسلاميّة والشرق الأوسط.

يفترض الكاتب أنّ «الاستشراق (بمفهومه الإسرائيلي) ليس مجرّد تخصّص في مجال ما، بقدر ما يعتبر مكوّنا أساسيّا في صميم الثقافة الإسرائيلية، وإنتاج الخطاب العام في إسرائيل، وفي رؤية الإسرائيليين للعالم من حولهم، ورؤيتهم لأنفسهم، وتعريفهم لهويّتهم الخاصّة.» افتراض الكاتب هذا، لا يغاير كثيرا مفهوم ادوارد سعيد للاستشراق حيث أنّ الاستشراق الإسرائيلي متأثّر بالاستشراق الغربي ويعتبر استكمالا للاستشراق الصهيوني والاستشراق اليهودي بشكل عام المتأثّرين أيضا بالاستشراق

(*) طالبة الدكتوراه في العلوم الاجتماعيّة في جامعة بير زيت.

يناقش الكتاب الدور الذي يلعبه الخبراء في الشؤون العربيّة في المجتمع الإسرائيلي، ويقوم جدل الكاتب على أنّه قبل إنشاء إسرائيل، كان الخبراء اليهود مسحورين بفكرة الشرق ما خلق نخبة «مهجّنة» تحمل عناصر يهوديّة وعربيّة، لكن بعد إنشاء إسرائيل لعبت تلك النخبة من المثقّفين والخبراء دورا جديدا في العمل على خلق الحدود الداخليّة ضد اليهود الشرقيّين والحدود الخارجيّة التي تميّزهم عن ما حولهم من الفلسطينيّين والعالم العربي، بالإضافة إلى العمل جديًا على تطهير «المهجّنين» وتعزيز الانفصال الثقافي بين اليهود والعرب، كما سيتم التوضيح لاحقا.

الغربي. لكنّ إيال يحدّد موقفه من مفهوم الاستشراق في منتصف المسافة بين ادوارد سعيد ونقّاده. فهو يعتبر أنّ تحليل سعيد للاستشراق باعتباره طريقة أوروبّا في التعاطي مع العالم من حولها بإضفاء صفات جوهرانيّة بين الشرق والغرب، يعني أنّ الاستشراق ظاهرة ثابتة لا تتغيّر، وأنّ وظيفة المستشرق بلا تاريخ ولم تتطوّر. ويعتبر أنّ محاولات نقّاد سعيد جَسْر الفجوة بين الجانبين يختزل تاريخ الاستشراق في عدد قليل من المستشرقين. يقول إيال بأنّ الباحثين اليهود ما قبل قيام إسرائيل ربّما كانوا مستشرقين بالمعنى السعيدي، لأنّهم نظروا إلى الشرق بتعبيرات ثنائيّة وجوهرانيّة، إلاّ أنّ المستشرقين الإسرائيليين المعاصرين لديهم ميل إلى التنصّل من دوغما المعتقدات الجوهرانيّة القديمة حول الشرق، بيد أنّهم يميلون إلى تعزيز تعريف انعزالي للهويّة الإسرائيلية، أي أصبح الاستشراق الإسرائيلي أقلّ جوهرانيّة، لكن أكثر انعزاليّة. ويقول بأنّ مفهومه هذا قابل للتفكير لدى «النظر إلى تناقضات وهَجَنة الصهيونيّة: هذا المشروع اليهودي للنجاة من كولونياليّة داخليّة عن طريق الاستيطان الكولونيالي في الخارج يعني أيضا أنّ اليهود لكي يصبحوا «طبيعيّين» (أي غربيّين) كان عليهم الذهاب إلى الشرق، والاندماج فيه، ولكي يشكّلوا ثنائيّة الشرق والغرب، كان عليهم مخالفة الشرق». على رغم محاولة الكاتب التأكيد أنّه يقدّم معرفة جديدة تغاير المعرفة التي قدّمها سعيد، إلاّ أنّه يعترف بأنّه يتّفق مع ادوارد سعيد في أنّ مفهوم الاستشراق غير محصور بحدود جغرافيّة بل هو «فكرة، كينونة متخيّلة، ومن الناحية الجغرافيّة يمكن أن ترسم حدوده وتتغيّر بطريقة تعسفيّة»، وأنّه يتّفق معه أيضا في أنّ فكرة الشرق من اختراع أوروبّا، وأنّ خطاب الاستشراق هو محاولة للسيطرة على كلّ ما تراه غريبا ومهدِّدا، ولو بصورة متخيّلة على الأقل.

يناقش الكتاب الدور الذي يلعبه الخبراء في الشؤون العربيّة في المجتمع الإسرائيلي، ويقوم جدل الكاتب على أنّه قبل إنشاء إسرائيل، كان الخبراء اليهود مسحورين بفكرة الشرق ما خلق نخبة «مهجّنة» تحمل عناصر يهوديّة وعربيّة، لكن بعد إنشاء إسرائيل لعبت تلك النخبة من المثقّفين والخبراء دورا جديدا في العمل على خلق الحدود الداخليّة ضد اليهود الشرقيّين والحدود الخارجيّة التي تميّزهم عن ما حولهم من الفلسطينيّين والعالم العربي، بالإضافة إلى العمل جديًا على تطهير «المهجّنين» وتعزيز الانفصال الثقافي بين اليهود والعرب، كما سيتم التوضيح لاحقا.

يطوّر الكاتب رؤيته لموضوع الاستشراق الإسرائيلي وتحديد الهويّة القوميّة لليهود على ثلاث مراحل بتسلسل زمني، كما ظهر في الفصول الثاني والثالث والرابع، والتي يرصد من خلالها تبلور الخطاب القومي الإسرائيلي لتعريف أنفسهم ورسم حدود فاصلة ثقافيّة وجغرافيّة وسياسيّة بينهم وبين السكّان العرب الفلسطينيّين، والذين تحوّلوا إلى أقليّة تخضع لحكم وقوانين الأغلبيّة اليهوديّة.

في الفصل الأوّل يعالج الكاتب مفهوم الاستشراق ومن هو المستشرق ونطاق عمل الاستشراق كتمهيد للفصول اللاحقة في الكتاب، والتي يرصد من خلالها تحوّل دور المستشرقين بدءا بالمستعربين خلال سنين العشرينات من القرن الماضي حتّى العصر الحديث.

في الفصل الثاني يقدّم الكاتب محاججتين شائعتين حول وضع الصهيونيّة في تلك الحقبة، فمن ناحية كانت تعتبر الصهيونيّة كنوع من الاستشراق، بالمفهوم السعيدي، أي بالنظرة الاستعلائيّة للشرق، لكنّه اعتبرها ليست أكثر من محاولات لإثبات الصهاينة أنفسهم كغربيّين، فعمدوا إلى شرقنة آخرين أضعف منهم، وشمل ذلك ممارسة التمييز ضدّ يهود الشرق الأوسط أيضا. والمحاججة الثانية

التي يوردها الكاتب هي اعتبار الصهيونيّة كنوع من الكولونياليّة التي تهدف إلى انشاء مجتمعات كولونياليّة استيطانيّة والاستيلاء على مستعمرة معيّنة واستغلالها، أكثر منه كنوع من الاستشراق.

في مرحلة ما قبل قيام إسرائيل، وكما يبيّن الكاتب في الفصل الثالث من الكتاب، تنافس طرفان على انتاج المعرفة الاستشراقيّة: أساتذة الدراسات الاستشراقيّة في الجامعة العبريّة الذين تلقّوا تعليمهم في الجامعات الألمانيّة، والمستعربون الذين يتكلّمون باللهجة الفلسطينيّة المحليّة وعملوا كمستشارين لدى القيادة السياسيّة. وكان هناك جدال بين الطرفين حول النموذج المثالي في تقديم المعارف الاستشراقيّة. يركّز المستعربون على الحياة العامّة للعرب ونظرتهم لليهود «جيّدة» أم «سيّئة». وإظهار مدى التعايش العربي– اليهودي، بينما ركّز الأكاديميّون في دراساتهم على الحضارة العربيّة بشكل عام، والتي تشتمل تاريخيّا وثقافيّا على اليهود الشرقيّين، والذين اعتبروهم عناصر تفاعليّة في حضارة أوسع. وبهذا كان الاستشراق الأكاديمي شكلا من الصهيونيّة، أي من التوسّط بين الشرق والغرب.

فرض الوضع الجديد على أرض الواقع بعد قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨، كما يوضّح إيال في الفصل الرابع، أشكالا جديدة من المؤسّسات الاستشراقيّة، حيث كانت هناك حاجة للتمييز بين العرب «الجيّدين» والعرب «السيّئين». وفي هذا الإطار واجهت إسرائيل تحديات جديدة ليس في تعريف هويّة الآخر وكيفيّة التعامل معه فقط، بل أيضا في تعريف هويّتها، وتنفيذ خطط تطهير ما يسمّيهم الكاتب بـ «المهجّنين» أو «العناصر الهجينة»، والتي تنوّعت بعد قيام إسرائيل، حيث ظهر عدد من الفئات التي اعتبرها الكاتب فئات مهجّنة مثل الفلسطينيّين الذين بقوا في أرضهم تحت الاحتلال الإسرائيلي ويطلقون عليهم تسمية «عرب إسرائيل»، واليهود من أصول عربيّة ويدعونهم بـ «اليهود الشرقيّين». فهؤلاء الآخرون في نظر إسرائيل ليسوا بالعرب المحض، وليسوا باليهود المحض.

كانت حرب ٤٨ نقطة فاصلة لتعريف هويّة اليهودي الإسرائيلي ووضع الحدود مع الآخر الفلسطيني، والعمل على تطهير المهجّنين من اليهود ودمجهم بالهويّة القوميّة اليهوديّة الجديدة، وبخاصّة مع ارتفاع نسبة الهجرة اليهوديّة إلى إسرائيل. ومن الممارسات التي اتبعتها إسرائيل في تعزيز هذه الحدود الفاصلة مع الآخر بعد قيامها هو تعزيز خطاب القرية العربيّة وتعزيز ثقافة الأمن، كما وضّح الكاتب في الفصلين الخامس والسادس، لتصبح الخطاب السائد في تحديد الحدود والهويّة الإسرائيلية.

استلهم غيل إيال، أستاذ السوسيولوجيا في جامعة كولومبيا في الولايات المتّحدة، اسم كتابه «نزع السحر عن الشرق»، كما يشير إلى ذلك، من تعبير ماكس فيبر «نزع السحر عن العالم» للتدليل على فقدان الحداثة للمعنى وعدم إضفاء معنى متماسك وموحّد على العالم، ما أدّى إلى التمييز والفصل بين مجالات مختلفة مثل الدين، والعلم، والفن، والاقتصاد، والسياسة، والجنسانيّة، والحياة الثقافيّة. وفي هذا السياق يرغب إيال في الإشارة في كتابه إلى عمليّة مشابهة من التشظّي، تمّ خلالها تقطيع منطقة الشرق المترابطة إلى تخصّصات منفصلة ومتنافسة مثل موضوع القرية العربيّة الذي يختلف في الوقت الحاضر عن الدراسات الشرق أوسطيّة، والتي تتميّز عن دراسة الحضارة الاسلاميّة القديمة، وغيرها. لكنّ إيال يختلف عن فيبر، في أنّ نزع السحر عن العالم عند فيبر كان نتيجة العقلنة المتزايدة، بينما اعتبر إيال أنّ نزع السحر عن الشرق قد سبق العقلنة، وكان من شروط تحقيقها.

تكمن أهميّة الكتاب كما عبّر عنها المترجم، حسن خضر، في ضرورة إطلاع القارئ العربي على موضوع الاستشراق الإسرائيلي والذي تندر معالجته ضمن الأدبيّات باللغة العربيّة. وأنا أرى أهميّة ترجمة كتاب كهذا ليس فقط في تمكين القارئ الفلسطيني والعربي من الاطلاع على جانب مهم من المشهد الإسرائيلي، بل أيضا كون الكتاب يمثّل مصدرا لزيادة المعرفة التي تساهم في خلق الجدل بين

الناقدين في مجال الاستشراق بشكل عام، والاستشراق الإسرائيلي المركّب داخليّا وخارجيّا وتبعيّات ذلك على فهمنا للمجتمع والسياسة الإسرائيلية ورؤيتنا لها. علاوة على ذلك، فقد يكون كتابا مهمّا لمن يركّزون في دراستهم أو أبحاثهم على مواضيع تتعلّق بإسرائيل والشرق الأوسط. لكنّني أنتقد بعض جوانب التحرير في نسخة الترجمة العربيّة، والتي لا تقلّل من أهميّة نشر الكتاب، لكن كان لا بدّ للناشر من أخذها بعين الاعتبار:

أوّلا، على الرغم من وضع هوامش الكتاب كاملة ومفصّلة، إلاّ أنّ الكتاب لا يشتمل على قائمة بالمراجع أو فهرس للموضوعات ليتسنّى للقارئ التعرّف على خلفيّة المعلومات في الكتاب، والتمكّن من الرجوع إليها في حالة الحاجة لها، عدا عن أنّ قائمة المراجع هي جزء مهم من تصميم أيّ كتاب مها كان.

ثانيا، وضع معلومات الكاتب والنسخة الأصليّة من الكتاب في الصفحة الأخيرة من الكتاب بحيث قد لا يلاحظها القارئ إلاّ بعد الانتهاء من قراءة الكتاب. فإقصاء هذه المعلومات غير مهني، حيث كان لا بدّ من وضعها في مكان أكثر وضوحا ليتسنّى للقارئ التعرّف على الكاتب وخلفيّته بشكل أكبر ما يساهم في إعطائه صورة أوضح حول ما يدور في الكتاب منذ البداية.

ثالثا، لاحظت أخطاء تتعلّق باستخدام الكلمة في الكتاب. مثل كلمة «يرى» حيث يستخدمها المترجم بدلا من كلمة «ينظر». على سبيل المثال هناك جملة: «يرى الإسرائيليون من خلالها إلى أنفسهم» بدلا من «ينظر الإسرائيليون من خلالها إلى أنفسهم»، أو «يرى الإسرائيليون من خلالها أنفسهم». وقد تكرّر هذا الاستخدام الخاطئ في أكثر من موقع.